راس البر

لقد تنفّس كُرْبنا وزال ما كنّا نلاقيهِ من المضض كلما اقبل الصيف بهجيره ولم نرَ لنا ولاولادنا منهُ مهربًا الاّ في ربى لبنان او جبال سويسرا حيث الشقة طويلة والبعد عن الاعمال ليس من الهنات الهينات . فقد وجدنا من رأس البر مصيفًا طيب الهواء قليل الحر يكتفي بهِ من يشبع من المرق اذا فاتهُ اللحم . ولم نرَ حتى الآن مكانًا اطيب منهُ هواء في هذا القطر لانهُ رمال جرداء بين بحر الروم وفرع دمياط تهبُّ عليها الرياح الغربيّة مدى النهار فتلطف حر الشمس وهجير الظهيرة . ولياليها باردة الهواء ايضًا خلافًا لغيرها من الاراضي الّتي يحيط بها الماء

ويخال المرء حين يراها اول مرة انها خالية من كل ما تقرُّ بهِ العين ويرتاح لهُ الخاطر لانها رمال جرداء لا نبات فيها ولا حيوان غير قليل من المظايات والحشرات لكن من يحب الطبيعة ويقدّر اعمال الانسان قدرها يرى فيها كثيرًا ممّا لا يخلو النظر اليهِ من لذة وفائدة . فالى الشرق منها منارة دمياط احدى منائر القطر المصري الّتي تهتدي بها السفن في بحر الروم وهي انبوب كبير تظنهُ عن بعد جزع نخلة خُضب بالبياض والسواد وربط بثلاثة حبال في ثلاث جهات لكي لا تعبث بهِ الرياح فاذا دنوت منهُ وجدتهُ برجًا شاهقًا من الحديد ارتفاعهُ ستة وخمسون مترًا وتلك الحبال الدقيقة اساطين مجوفة من الحديد كاغلظ التمدان . وفي قلب البرج سلم لولبيّة يصعد بها الى قمتهِ وهناك منارة كبيرة في كل جانب منها عدسيّة ومواشير محيطة بها تجمع اشعة النور وترسلها في خطوط متوازية لكي تمتد الى ابعد ما يمكن ارسالها اليهِ وبينها قنديل كبير فيهِ فتائل متراكزة يوقد فيهِ زيت البتروليوم وتدور كوّة حول المنارة بآلة كالساعة فتحجب النور عن جهات وترسلها في اخرى في اوقات متساوية فيعلم النوتية من ظهور نورها وغيابهِ في تلك الاوقات انها منارة دمياط

وعلى مقربة من هذهِ المنارة طابية كبيرة يحيط بها خندق عميق في وسطها برج مستدير فيهِ مرامي البنادق وحولهُ ابراج اخرى ومدافع انكليزية كبيرة ممّا ابتاعهُ اسمعيل باشا حينما كان يقصد الاستقلال بالقطر المصري . وقد نزلها عبد العال حشيش في الثورة العرابيّة وقصد استعمالها في صد الانكليز فلم يتسنَّ لهُ ذلك ومنها مدفع ثقلهُ ٤٠٣٣٨ ليبرة وثقل ما يقذف بهِ ٤١٦ ليبرة ومدفع آخر ثقلهُ ٢٧٤٨٢ ليبرة وثقل ما يقذف بهِ

٦٩٨ ليبرة . وقد عطلت هذه المدافع على اثر الثورة وبقيت سيفي اماكنها شاهدة على الاسراف وسوء التدبير . والطابية الآن دار لخفر السواحل .

وجنوبي رأس البر طابية اخرى مثلها فيها مدافع انكليزية كبيرة مما ابتاعهُ اسمعيل باشا للغاية المذكورة آنفاً ثقل واحد منها ٤٠٤٢٢ ليبرة وثقل ما يقذف بهِ ٥١٢ ليبرة وقطر فوهتهِ عشر عقد انكليزية وبجانبها مستودع لمركبات المدافع بينها مركبة كبيرة يظن الرائي انها صنعت لنقل الجبال لا لنقل المدافع لضخامة عجلها

واعجب العجائب الصناعيَّة عشاش المصيفين وهي على طراز واحد تقريباً ارضها رمل وجدرانها وسقفها من حصر الحلفاء والقصب وكذلك ابوابها وكواها . وكأن المصيفين سئموا الحضارة فارادوا العود الى البداوة فتراهم يخرجون صباحاً زرافات حفاة حاسرين وينفرون الى البحر يغتسلون فيهِ الرجال اولاً ثم النساء ويعودون الى عشاشهم حفاة ملثمين

ويأتي البريد الى رأس البر ويذهب منهُ مرتين كل يوم بواخر صغيرة تسير بينهُ وبين دمياط وحبذا لو أوصل التلغراف اليهِ او الى العذبة المقابلة لهُ

وقد رأى المصيفون انهم آتون للنزهة فهي غرضهم الاول ولذلك تراهم يقضون اوقاتهم في الزيارات والمسامرات وكل ما يجلي صدأ الهموم

وقد راق لنا ما رأيناهُ في هذا المكان من المحاسن الطبيعيَّة والصناعيَّة فقلنا فيهِ

نزلنا برأس البر ما بين بحرَيْنِ ... على رملة ميثاء صيغت بسيفَيْنِ
يمدُّ اليها الماء حيناً وينثني ... كصبٍّ براهُ الوجد خوفاً من البَيْنِ
ويلثمُ خدَّيها فيقترُّ ثغرها ... لآلئ صيغت فيهِ سمطَيْنِ سمطَيْنِ
جماد ولكن لا حياةَ بغيرهِ ... سكونٌ حراكٌ فهو جامع ضدَّيْنِ
اقامتْ بهِ الاضداد والطيرُ اذ رأت ... محارًا بلا حدٍّ وصيدًا بلا صَوْنِ
وقد خضعت تلك الملايين كلها ... لمن بالنهى والحزم ساد على الكونِ
تراب عليهِ عاملانِ تنازعا ... فصار بنو حواء من ذاك شخصَيْنِ
فمن فاضلٍ يفدي العفاة بنفسهِ ... ومن ناقصٍ يزدان بالمينِ والشَّيْنِ
نزلنا كناساً للظبي ومسارحاً ... جآذرها ترمي الكماة بقبلَيْنِ
بيوتاً من الحلفاء لا تغتذي بها ... مكاريب امراض ولا رُسل الحَيْنِ
تمرُّ بها هوج الرياح كأنَّها ... مصافي اطبَّاء تلافت قذى العَيْنِ
نزلنا بها نبغي الاقامة سبَّةً ... فطابتْ لنا فيها الاقامة شهرَيْنِ